المذاهب الدينية الحديثة في الغرب

يبدو أن بعض شبابنا قد تورط في حبال المونية وحيث أن المونية تشكل جزءا من ظاهرة عامة هي ظاهرة المذاهب الدينية الحديثة في الغرب فقد أحببت أن أكتب بشيء من التوسع عن هذه الظاهرة وسوف أقدم هذا العرض في خمس حلقات إن شاء الله الأولى عن المذاهب المذكورة بشكل عام والثانية عن المونية بشكل خاص والثالثة عن دعوة توحيد الأديان التي تنادي بها المونية اليوم وإن كانت في الحقيقة أقدم من ذلك. أما الرابعة والخامسة فعن الحوار بين الأديان ثم التعايش بين الأديان وذلك للتمييز بينها وبين دعوة دمج الأديان.

في أحد شوارع نيويورك شاب ذو ملابس مرتبة وربطة عنق بشعر قصير وبسمة كولجيت يعترض فتاتين كانتا تتسكعان في الطريق تتمليان واجهات المحال التجارية دون اهتمام ظاهر ويسألهما عن قرب هل يعجبكما المجتمع الحالي؟ هل تعرفان أصل الخير والشر؟ هل تشعران بتخوف الناس من الاتصال ببعضهم؟ وشيئا فشيئا يقنع هذا الداعية لرابطة توحيد المسيحية العالمية مذهب سن ميونغ مون المجندتين الجديدتين لحضور محاضرة مسائية عن المبادىء الإلهية ثم إلى زيارة مركز الرابطة في نهاية الأسبوع ثم إلى دورة لثلاثة أسابيع.

تنتشر المذاهب الدينية الجديدة في أوروبا وأمريكا اليوم بشكل ملفت للنظر وهناك منها ما يناسب كل الأذواق والميول وعلى سبيل المثال سيجد الشباب الحائر المتلهف للمطلق مذاهب مثل أبناء الله أو الثورة للمسيح أما المتعطشون للخوارق فستغريهم المذاهب الشفائية مثل القلوب الثلاثة المقدسة ومريدو الإخفائية سيتوجهون نحو الروحانية والتنجيم والسحر أما العقلانيون فستقنعهم المذاهب العلموية مثل العلم المسيحي وعلم العلوم. المغرمون

بالشرق ستجتذبهم المذاهب الباطنية مثل التأمل المتسامي ويقظة كريشنا والجورو مهراجي والسوكاجاكي والبوذية التأملية (زن) بينما يتجه القلقون إلى المذاهب الألفية المبشرة بقرب عودة المسيح مثل المورمون والأدفنست وشهود يهوه وتسميتها بالألفية مشتقة من اعتقاد بعضهم بأن المسيح سيعود ليملك الأرض ألف سنة قبل قيامة الموتى.

انتشار المذاهب

ويرى باحثو الاجتماع والأنثروبولوجيا أن انتشار المذاهب يصاحب فترات القلق الناجمة عن تدهور المدنيات وانهيار الدين الرسمي كما حصل أبان انهيار الإمبراطورية الرومانية. ويربطون بين انتشار المذاهب حاليا في العالم الغربي وبين التحول الثقافي العميق الذي حصل داخله والذي صحبه انهيار الكنائس الرسمية كما يرون أن ظاهرة التشرذم أو الانفصال عن المجموعة بمظاهرها الاجتماعية والفكرية والسياسية تصاحب كل محاولات التوحيد الشمولية المطلقة التوتاليتارية التي تتجاهل وتحاول طمس الفوارق والتمييزات بين الأفراد والمجموعات وخاصة إذا اتصفت هذه المحاولات الشمولية بالإرهاب المادي أو الفكري.

وهذا التعميم يتعدى تفسير ظاهرة المذاهب إلى المساهمة في تفسير ظواهر أخرى مثل حركة عدم الانحياز وحركات الإرهاب الدولية في مواجهة الشمولية الدولية وهيمنة القوى العظمى وما يسمى اليوم بالنظام العالمي الجديد كما يساهم في تفسير ظواهر الانفصالية كما حصل في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية وعلى المستوى الاجتماعي يفسر ظهور فئات الرفض المنهجي والانعزالية وعلى المستوى الفكري يساهم في تفسير ظاهرة الزمر السياسية الصغيرة والمذاهب الدينية.

وإذا رجعنا إلى خصوص ظاهرة المذاهب الدينية الحديثة فإن الذي لا شك فيه أن هذه الظاهرة ذات دلالة واضحة على فطرية نزعة التدين عند الإنسان وقد جاء في التنزيل العزيز ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها**

لا تبـديـل لخلق الله ذلـك الـدين القيم ولكن أكثـر النـاس لا يعلمـون﴾ [الروم: ٣٠]. وهٰذا نص أولا على أن التدين فطرة لا تتبدل وإذا عرفنا التدين على أنـه خضـوع طوعي تمجيدي لذات أو ذوات غيبية عليا يعتقـد الإنسان هيمنتهـا عليه ورعايتها له نجد أن الأنثروبولوجيا الحديثة قد اعترفت بأن هٰذا التدين قد عرفته جميع الشعوب منذ فجر الإنسانية (راجع كتاب الدين للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز) ويقرر النص فوق ذلك أن التوحيد والتنزيه للذات المعبـودة ـ وهٰـذا معنى حنيفـا ـ همـا الأصـل في ديانات الإنسانية وأن الشرك انحراف عنهما وهٰذا النص هو كلمة الفصل في هٰذه المسألة.

انحـــراف

إذن فمن المتفق عليه أن محـاولة الحضارة الغربية الحديثة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلغاء الدين كانت انحرافا عن الفطرة الإنسانية ربما كان فريدا في تارخ الإنسان وقد ظهرت نتائج هٰذا الانحراف اليوم في القرن العشـرين. هٰذا الإلغـاء للدين في تاريخ الفكر الأوروبي كان نتيجة للصراع الداخلي في أوروبا ضد الدين كما قدمته الكنائس الرسمية هناك ابتداء من تبني التثليث ومـا صاحب ذلـك من اجتهـادات تفسيرية لغمـوضـه وأسراره ومرورا بالتحالف مع السلطة المهيمنة ضد الأغلبية الفقيرة الكادحة وانتهاء باضطهاد التـوجه العقلاني التجريبي القادم من بلاد المسلمين. وقد كانت الإنجازات التقنية التي حققها التجريبيون العقلانيون هي السلاح النهائي الذي قضى به هؤلاء على هيمنة الكنيسة ماديا ومعنويا. ولكن هؤلاء المفكرين أنفسهم تعسفوا في استخدام هٰذا السلاح فاستخدموه كمبرر لإلغاء الدين كله كمبدأ قياسا للدين كله على دين الكنيسة الرسمي وظنا منهم وهم في أوج انجازاتهم التقنية بأنهم وقـد تحكمـوا في جزء من الـطبيعة يستطيعون التحكم في الإنسان وفي بنيته الفطرية وأنه يمكن إحلال العلم مكان الدين في النفس والمجتمع كما أنه يمكن إحلال الشك العقلاني مكان الاطمئنان اليقيني في الروح الإنسانية وإن كانوا لا يعتقدون بوجودها.

التفسير المادي للكون والإنسان

وقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر أوج المحاولات التنظيرية للتفسير المادي للكون والإنسان وقد تبنى الساسة والموجهون الغربيون رسميا أفكارا تخرصية ظنوا أنهم يستطيعون أن يقيموا عليها تصورا علمويا للكون والإنسان مثل أفكار داروين وفريد وماركس وقد أضيفت على هذه الأفكار نعوت العلمية للتغرير بغير المتخصصين وقد كان التعنت والتحكم المسبقان صفة مميزة لهذه الأفكار ففي عام ١٨٤٥ مثلا أقسم أربعة من الفسيولوجيين الناهضين هم: هلمهولتز ولودفيج وديبوا ريمون وبروكه بأن يفسروا كل العمليات الحيوية بلغة فيزيوكيماوية لا تتعدى قوى الجذب والطرد وتبعهم الكثيرون في ذلك فكان موليشوت وفوكت يزعمان أن البشر هم ما يأكلون وأن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكلية البول (راجع كتاب ليس في جيناتنا لـ «ستيفن روز» ـ عالم المعرفة ١٤٨) ولكن النصف الأول من القرن العشرين شهد تطورات جذرية في الفكر العلمي الغربي والذي استخدم من قبل لإضفاء الشرعية على عملية إلغاء الدين فقد تبين للباحثين أن تطبيق علوم الجماد على الأحياء ومن باب أولى وأخص على الإنسان لم يعط ثماره المتوقعة بغرور في فهم الحياة والإنسان بل أن معارفنا في عالم الجماد على غزارة ثمارها التقنية اتضح أنها متواضعة ومحدودة بالنسبية «أينشتاين» والاحتمالات «ماكس بلانك» كما أعطت النظرة المادية المستبعدة للدين ثمارها والتي كان يجب توقعها في حصول اضطراب روحي في الحضارة الغربية أدى إلى انتشار القلق والأمراض النفسية والجريمة والانتحار وتدمير الأسرة واضطراب العلاقات الجنسية وتدمير البيئة نتيجة هيمنة النظرة المادية وسيطرة القوى الاقتصادية وتعميم الصراع الطبقي داخل الأمم والصراعات العرقية والقومية فيما بينها وتوج ذلك كله بحربين عالميتين ذهب ضحيتهما أكثر من خمسين مليونا من البشر.

فشل العلموية

ومع تبلور فشل العلموية في أن تكون بديلا للدين ومع ظهور النتائج المدمرة لاستبعاد الدين توجه حكماء الغرب إلى محاولة لبعث المعاني الخلقية

من جديد ولم يكن ممكنا أن يرجع الغرب إلى الدين الرسمي الذي عانى من هيمنته الأمرّين في القرون الوسطى ولم يتخلص منه إلا بتضحيات جسيمة كما لم يكن ممكنا أن ينظر الغرب إلى دين آخر من الأديان القائمة وخاصة الإسلام رغم أن الإسلام دين لا ألغاز عقيدية فيه ولا تحالف مع السلطة ولا تعارض مع العقل والتجريب وهي الصفات الثلاثة الرئيسية التي كان افتقادها سببا للصراع بين الدين الرسمي والمجتمع في أوروبا. لم يتجه الغربيون إلى الإسلام بسبب تكبرهم واغترارهم بمنجزاتهم التقنية وبسبب عدائهم التاريخي للإسلام وبسبب الصورة السيئة والمشوهة عن الإسلام التي يعطيها للأسف واقع المسلمين كما آل إليه والتي لا تقدم شهادة طيبة تحمل غير المتخصصين على دراسة الإسلام. وعليه فقد حاول الغرب إرساء دعائم أخلاق عملية لا تستند إلى قواعد نظرية وعلى وجه الخصوص لا تستند إلى الدين ولا إلى الاعتراف بالله وبالروح وحيث أن هذه الأخلاق العملية نشأت منبتة عن المعين الحقيقي الوحيد للأخلاق وهو الإيمان الصحيح بالله فإنها ما لبثت أن انهارت أيضا ولم تستطع أن تملأ الفراغ الروحي للإنسان ولعل أقرب مثال إلينا هو ما نشهده من تحول منظمة الأمم المتحدة التي أنشئت نظريا لتأسيس نظام عالمي عادل ثم ما لبثت أن أصبحت مطية في يد الغرب ومؤسساته لتكريس الظلم العالمي والذي يسمونه اليوم بالشرعية الدولية.

في هذا الإطار: فطرية نزعة التدين عند الإنسان والإلغاء الرسمي للدين في العالم الغربي، تبرز ظاهرة المذاهب الدينية الحديثة كرد فعل عند الشباب الغربي وحصولها عند الشباب على وجه الخصوص ناتج عن أن الإنسان في مقتبل حياته يكون أكثر تشوقا وحاجة للإجابة على الأسئلة الأساسية التي هي موضوع الدين بل وموضوع الحياة الإنسانية وهي من نحن وماذا نفعل وإلى أين نذهب وذلك قبل أن تنقض مطالب الحياة الاستهلاكية ومقتضياتها وتشغل الإنسان عن نفسه. وكرد فعل للواقع الفكري والاجتماعي نجد الإيمان بالغيبيات ورفض هيمنة العلم أو على الأقل محاولة التوفيق بينهما كما في العلموية المسيحية ونجد رفض الكنيسة الرسمية والاتجاه إلى ديانات الشرق الأقصى أو محاولة استنبات تصور جديد للمسيحية مخالف للتصور الكنسي

التقليدي ونجد محاولة بناء مجتمعات منعزلة بقيادات مستقلة لا تتبع نظريا على الأقل القيادات السياسية القائمة بالفعل.

وككل ردود الفعل فإن هٰذه المذاهب تتسم بالرفض والتطرف والتشرذم وهٰذا يفسر لنا ظاهرتين أساسيتين الأولى هي الإغراق في الغيبية إلى درجة الخرافة على الرغم من التسميات البراقة لبعضها مثل العلم المسيحي إلا أن هٰذا العلم هو أيضا إفراغ لمعلومات ناقصة في قوالب مشعوذة مثل الرقمية والرمزية والثانية هي إمكانية استغلال هٰذا الشباب من قبل رجال محترفين أدركوا حقيقة هٰذه الظاهرة وضربوا بمهارة على الوتر المطلوب بحيث بعد أن دغدغوا مواقع الحساسية عند الشباب المتعطش للدين قاموا بتخدير مواقع التيقظ لمحاولات الاستغلال والتلاعب بالشخصية فيما يمكن أن نعده أحد ضروب غسل الدماغ، فمثلا نجد شبابا يعيش في حالة الفقر الاختياري ويمارس التسول ليجمع المال لقائد المذهب الذي يعيش في رفاهية مطلقة ويتحكم بالمليارات فضلا عن الملايين من الدولارات. «مون» مثلا يقول لاتباعه أن الأوراق الخضراء ـ الدولارات ـ تبكي طالما لم تدخل في خزانته الشخصية.

وهكذا فإن كان التعطش إلى الدين ورفض الواقع العلموي ونظام الحياة القائم عليه يلقيان الضوء على خلفية هٰذه الظاهرة فإن دراسة مختلف المذاهب المطروحة على الساحة ترشدنا إلى أغراض ومقاصد الذين استغلوا هٰذا الاستعداد وركبوا هٰذه الموجة وأنشأوا هٰذه المذاهب. وسوف لا نستغرب إذا وجدنا أن النظام الغربي العلماني نفسه قد استفاد من هٰذه الظاهرة وشكل أو ساهم في تشكيل أو سهل تشكيل أو تعاون مع مذاهب دينية حديثة لخدمة أغراضه فلا شك مثلا أن المذاهب المسالمة والانعزالية ستكون أسهل لاحتواء ظاهرة الرفض عند الشباب من مظاهرات الطلاب كما حصل عام ١٩٦٨ في فرنسا ومن الزمر العنيفة مثل الألوية الحمراء أو عصابة بادر ماينهوف وكلها في النهاية تعابير عن رفض التركيبة الفكرية والاجتماعية القائمة. كما نجد فصائل من الغرب العلماني تستغل هٰذه المذاهب لمحاربة فصائل أخرى. وأكثر هٰذه المذاهب خضوعا للغايات السياسية هو بلا شك مذهب «مون» الذي لم يخف

غرضه في تجميع طاقات المتدينين ذوي الاستعداد ليحارب الشيوعية كما لو كانت الشيوعية وحدها تحتكر تمثيل الشيطان وهكذا اتخذ هٰذا الغرض الغطاء الديني الذي يخفي كذلك المطامع الشخصية لصاحبه.

بعد هٰذا العرض السريع لظاهرة المذاهب الدينية الحديثة الذي يظهر خلفيتها وأبرز ملامحها تنتقل إلى الكلام عن مذهب «مون» على وجه الخصوص وهو ما سيكون موضوع الحلقة القادمة إن شاء الله.

نشرت في اللواء ١٩/٢/١٩٩٢

obeikandl.com